مقتطفات من كتاب
عبد الرحمن الكواكبي
عباس العقاد

حدوتة كتاب

إليك لأنك تعرف لماذا!!!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

وقد يجنح بها الغلو إلى مثال من الخلط بين العقائد والشعائر لا يعهد فى بيئة لم تتعرض لتلك التجارب التاريخية ، فقد روى دارفيو المتقدم ذكره أنه وجد فى عين طاب « عينتاب » طائفة تسمى الا (كنزوكنز) ، أى النصف والنصف ، يصلون فى المساجد ويحفظون القرآن ويعلقون المصاحف الصغار فى أعناق أطفالهم ويوجبون تعميد هؤلاء الأطفال وتقريب القرابين فى المعابد المسيحية والذهاب إلى كرسي الاعتراف وإقامة الصلوات فى عيد الميلاد وعيد القيامة .

وكانت ولاية حلب — مع سائر الولايات السورية — قد اتصلت بمصر زهاء سبع سنوات ، ثم ثارت على حكم إبراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٠ فأعيدت إلى الدولة العثمانية على وعد بالإصلاح وتنظيم الإدارة

الإصلاح مهمة روحية ثقافية ، وجعلت رجلا كالسيد جمال الدين الأفغانى داعياً مسموعاً حيثما حل فى قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وناهيك بإمام من الأفغان تصدر له صحيفة « مصر » ويحررها تلميذه « أديب إسحاق » وهو المسيحى الكاثوليكى من الأرمن العثمانيين .

أسرة الكواكبى

ينتسب الكواكبي من أبويه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد روى صاحب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » نسب الأسرة نقلا عن كتاب « النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح » الذى ألفه السيد حسن بن أحمد بن أبى السعود الكواكبى

يلقى حجر على القنصل الإيطالى فيتهم الكواكبي لأن القنصل أصيب فى جوار داره ويطلق الرصاص على الوالى فيتهم الكواكبي لأن الكواكبي اشتكاه وأنحى عليه ، ويشتجر جماعة من أبناء الجاليات فيتهم الكواكبي لأنه حسن العلاقة محبوب بين أبناء هذه الجاليات .

وإلى هذا يشير فى كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول : « إن المستبد لا يخشى علوم اللغة — تلك العلوم التى بعضها يقوم اللسان وأكثرها هراء وهذيان . نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش » .

ثم يقول : « كذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة بما بين الإنسان وربه ؛ لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وإنما يتلهى بها المتهوسون » ..

وجهد الإنسان من الثقافة أن يعيش فى عصره لا يتخلف عن شأوه فى علمه ولا فى عمله ، فليس للثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة فى مجال المعيشة ولا فى مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح .

فالرجعى الجامد يعيش فى الأيام الماضية .

والطوبىُّ الحالم يعيش فى الأيام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤدى للثقافة كل حقها إذا استفاد من معارف زمنه ولم يتقيد ببقايا الزمن السابق وعقابيله ، فعمل كما ينبغى أن يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التى يرتبط بها المقلد وهو لا يفقه معناها . والذين أصابوا من ثقافة القرن التاسع عشر كما أصاب الكواكبي كثيرون يعدون بالمئات ، ولكن الذين لهم من ثقافتهم فضل كفضله آحاد يعدون على أصابع اليدين .

إلى أن يقول : « ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التى تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هى حقوقه .. » .

توفر الكواكبي على قضيتين اثنتين لم يشتغل زمناً طويلا بقضية غيرهما ، وهما قضية البحث فى أسباب تأخر الأمم — ولا سيما أمم العالم الإسلامى ، وقضية البحث فى عوامل الاستبداد فى حكم الدول ، ولا سيما الدول العثمانية .

وأودع زبدة آرائه عن قضية العالم الإسلامى فى كتابه « جمعية أم القرى » .

وأودع زبدة آرائه عن الحكم والاستبداد فى كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » .

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتلى بالمتاعب المرهقة من آفات السياسة حتى ملها واستعاذ بالله منها فى كلمته المعروفة « أعوذ بالله من السياسة ... ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » وطفق ينصح لمريديه باجتنابها

ثم يقول :

« ياقوم ! ينازعني والله الشعور هل موقفى هذا فى جمع حى فأحييه بالسلام ، أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة .

« يا هؤلاء ! لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين . بل أنتم بين بين فى برزخ يسمى الموت ، ويصح تشبيه بالنوم .

« يا رباه . إنى أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحياة وهم فى الحقيقة موتى لا يشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

« يا قوم ؟ هداكم الله . إلى متى هذا الشقاء المديد ، والناس فى نعيم مقيم ، وعز كريم . أفلا تنظرون ؟ » .

وفى مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفحات ليخاطب الشرق والغرب بهذا الخطاب ، إذ ينادى الشرق . أولا ؛ قائلا :

« رعاك الله ياشرق ! ماذا أصابك فأخل نظامك ، والدهر ذاك الدهر ، ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك » .

ومن ذلك قوله : « المستبد عدو الحق ، عدو الحرية ... والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام ، نيام » .

أو قوله : « لو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام فى ظلام الجهل ، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر فى ظلام الليل .

أو قوله : « الاستبداد لو كان رجلا يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبى الظلم ، وأمى الإساءة ، وأخى الغدر ، وأختى المسكنة ، وعمى الضر ، وخالى الذل ، وابنى الفقر ، وبنتى البطالة ، وعشيرتى الجهالة ، ووطنى الخراب . أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال المال .. »

أو كقوله : « إنه المعترك الذى .. قل فى البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر ، أو على جمل من الجهل ، أو على فرس من الفراسة ، أو على حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار المتطى فى التدقيق مراكب البخار » .

أما كتاب « العظمة لله » فهو كتاب سياسى « كسائر ما خطته يمينه » على قول الأستاذ محمد كرد على فى الجزء الثانى من مذكراته ، وهو يقول قبل ذلك فى هذه المذكرات : « الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة فأرسل مدير معارف بيروت — عبد القادر القباني — يأخذ أوراقه ويرضى أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة . أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التى بدأ وضعها ، ومنها ما قرأ لى مقدمته واسمه : العظمة لله . . . » .

والذى نرجحه ونستدل من عنوان الكتاب عليه أنه إضافة إلى — « طبائع الاستبداد » ينكر فيها على المستبدين تطاولهم إلى مشاركة الله فى عظمته وينكر فيها على الخانعين من رعاياهم خضوعهم لتلك العظمة . ولا نخاله قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التى أطلع عليها صديقه كرد على ، لأنه لم يطلعه على شىء بعدها مع ملازمته إياه إلى يوم وفاته .

قال صاحب المنار : إن أبا الهدى سعى فى إسناد ولاية طرابلس إلى أحد أصهاره فأصبح الناس يحجمون عن ذكر اسم جمال الدين والثناء عليه فى مجلسه ، ولم يقنع أبو الهدى بمصادرة هذا المصلح الكبير فى حياته فى البلاد التى يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب إلى صاحب المنار بعد وفاة جمال الدين كتاباً (فى التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣١٦ هـ) — لعل الكواكبي قد اطلع عليه — عتب فيه عليه لثنائه على جمال الدين فقال : « إنى أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التى كان يزعمها زوراً . وقد ثبت فى دوائر الدولة رسمياً أنه مازندرانى من أجلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

إن المباحث فى « أم القرى » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكبي لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس فى الكتاب فكرة يعز عليه فى ذكائه وبحثه أن يستوحيها من مكانه وزمانه ، ولا غضاضة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوى الرأى فيما يذاع أو لا يذاع ، وفيما يحسن نشره لحينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين .

وعلى الجملة يصح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن علل الأمم الإسـ ـمية وعوامل شفائها عمل خالص للكواكبي فرغ منه فى بلدته قبل هجرته منها .

« خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد . فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه ، أى أن التربيـة تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلا إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فى النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته . واستعداد الإنسان لاحد لغايته . فقد يبلغ فى الكمال إلى ما فوق مرتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذى يحمل الأمانة وقد أبتها كافة العوالم ، ويصح أن تكون هذه الأمانة هى تخيير تربية النفس على الخير أو الشر ، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين ، لأن الشياطين لا ينازعون الله فى عظمته ، والمستبدون ينازعونه فيها ، ولكن لحاجة فى النفس . والمتناهون فى الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض ، حتى قد يتعمدون الإساءة لنفسهم »

كان الرجل قضية حية متفقة المقدمات والنتائج .

كان شخصية قويمة جلية لا موضع فيها لغموض أو التواء .

مفتاحها إذا التمسنا المفتاح لبعض زواياها أنها « شخصية عزيز قوم يغضب لكرامته وكرامة قومه » .

وانا أن نفسر بهذا المفتاح كل سر فيها من أسرار الأعمال أو أسرار النيات .

والمؤرخ الحلبي الأستاذ الغزى ، وهو صديق الكواكبي ، يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن الخديوى عباساً استدعاه ليقوم بالدعاية لخلافة مصرية وليسعى لدى الشيوخ وعربان الإمارات فى ذلك ، ويروى أنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا فى حديدة باليمن — وهو من أسرة الصولا بحلب يسمى فرديناند ميخائيل — فذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبي أثناء هذا الطواف »(1) .

وضريحه بالقاهرة فى مثواه الأخير بباب الوزير ، نقلته إليه مصلحة التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعلى صفحته المرمرية هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

قال الأستاذ من فصل الاستبداد والعلم : « إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشىء عن الجهل فإذا ارتفع الجهل زال الخوف انقلب الوضع ، أى انقلب المستبد رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام » .

قال من فصل الاستبداد والدين فى طبائع الاستبداد : « إن قيام المستبدين من أمثال أبناء داود وقسطنطين فى تأييد نشر الدين بين رعاياهم ، وانتصار مثل فيليب الثانى الأسبانى وهنرى الثامن الإنجليزى ... والحاكم الفاطمى والسلاطين الأعاجم المتنصرين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله إلا بقصد الاستعانة بالدين أو بأهل الدين على ظلم المساكين » .

ويرى الكواكبى أن المتشددين من رجال الدين مسئولون كالحكام المستبدين عن شيوع التصوف الفاسد بين العامة وأشباه العامة من المسلمين المتقدمين والمتأخرين ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلا على النفوس فمهدوا الطريق لمن يبيحون المحظورات باسم العلم « الباطن » والمعرفة الخفية التى ترفع التكليف عن الواصلين إلى الهداية من غير طريق الشريعة الظاهرة ولولا العنت المرهق من أولئك المتشددين لما راجت سوق التصوف المكذوب ... قال بلسان الشيخ السندى : « فبناء على هذا التضييق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل التهوين ، وهم القائلون إن العلم حجاب ، وبلمحة تقع الصلحة ، وبنظرة من المرشد الكامل يصير الشقى ولياً ، وبنفخة فى وجه المريد ، أو تفلة فى فه ، تطيعه الأفعى وتحترمه العقرب التى لدغت صاحب الغار عليه الرضوان ، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة ، وهم المقررون بأن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها إلا الكذب ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب الحرمان ، أى أن تحسين الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين والأعمال التى تجعله نوعاً من اللهو الذى تستأنس به نفوس الجاهلين » .

قال : « على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين . وأين هم ؟ . لفروا منهم فرارهم من الأسد . إذ ليس عند هؤلاء إلا التوسل بالأسباب العادية الشاقة لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات وتصفية القلوب من شوائب الشره فى حب الدنيا وحمل الطبائع بوسائل القهر والتمرين على الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهى المضرة ، طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية فى الحياة الدنيا ، والسعادة الأبدية فى الآخرة . وأين التهوين السالف البيان لصوفية الزمان من هذه المطالب التهذيبية ؟ » .

قال فى كلامه عن الاستبداد والترقى فى طبائع الاستبداد : « ولا تجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة كلها لا تغنى شيئاً مع فقد الإيمان ، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهوسات ، تضيع بها الأموال والأوقات » .

ولهذا يعقب الكواكبى بعد تلك العبارة قائلا : « إن الدين يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم ، ولا أقل فى هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين » .

(الكواكبى)

والكواكبى ينفض يديه من هذه الطائفة ولا يترجى منها خيراً لإصلاح دينها ولا لإصلاح دنياها ، وفيها يقول من كلامه فى الاجتماع الثامن من مؤتمر أم القرى : « وأما الناشئة المتفرنجة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلا عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم ، وذلك لأنهم لا أخلاق لهم ، تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت ، لا يتبعون مسلكاً ولا يسيرون على ناموس مطرد ، لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكلا ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم فيستحسنون عاداتهم ومميزاتهم فيميلون لمناظرتهم ولا يقوون على ترك الفرنج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فيندفعون للتشبه بهم فى التشبيب والإحساس فقط دون التشبث بالأعمال التى يستوجبها الحب الصادق ، والحاصل أن شئون الناشئة المتفرنجة لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف لأخلاق ... والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رياء ، وبالطاعة ولو عمياء » .

ولابد من التمهيد لقيام الخلافة باعداد الأذهان فى العالم الإسلامى لقبول هذا النظام وإيثاره على نظم التقاليد التى فرضتها مآرب أصحاب السلطان ودسائس الدعاة المغرضين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، وتتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تعمل أساس الشورى والاختيار وتتخذ مقرها فى ميناء متوسط كبورسعيد أو الكويت ، ثم تعلن دعوتها وتبلغها إلى ولاة الأمور فى الأقطار الإسلامية .

فالطفل من طائفة « زادكان » أى الأصلاء ينعت فى المنشور الرسمى عند ولادته (بأنه أعلم العلماء المحققين) ... ثم يكون فطيماً فيخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) ... ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بأنه (أقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ... ثم يكبر فيوصف (بأعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) إلى آخر ما فى تلك المناشير من الكذب المبين .

يقول الكواكبى بلسان المولى الرومى بعد ما تقدم : « ولا ريب أن التسعين فى المائة من هؤلاء العلماء المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الخمسة فى المائة من أولئك المتورعين رافعى أعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله وملائكته والمؤمنين » .

ثم يقول : « ويكفى حجة عليهم ... تميزهم جميعاً بلباس عروس محلى بكثير الفضة والذهب مما هو حرام بالإجماع ولا يحتمل التأويل ... اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة عند إقامة شعائرهم وفى احتفالاتهم الرسمية ... » .

قال بعد أن بين أن مآرب الملك غلبت فى تاريخ الدولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تمليها مصالح الأمم الإسلامية على من يستطيع رعايتها : « إنى أذكر لك أنموذجاً من أعمال لم أتوها رعاية للملك وإن كانت مصادمة للدين .. فهذا السلطان محمد الفاتح — وهو أفضل آل عثمان — قد قدم الملك على الدين فاتفق سراً مع فرديناند ملك الأراغون الأسبانيولى ثم مع زوجته إيزابيلا على تمكينهما من إزالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الأندلس ... مقابلة ما قامت لديه روما من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمة مكدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجنّة . وبينما كان هو يقتل العرب فى الشرق كان الأسبانيون يحرقون بقيتهم فى الأندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق إيران حتى ألجأهم إلى إعلان الرفض .. ثم لم يقبل العثمانيون تكليف نادر شاه لرفع التفرقة بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر ، كما لم يقبلوا من (أشرف) خان الأفغان اقتسام فارس كى لا يجاورهم ملك سنى . وقد سعوا فى انقراض خمس عشرة دولة وحكومة إسلامية .. وأعانوا الروس على التتار المسلمين وهولاندة على الجاوة والهنديين ، وتعاقبوا على تدويخ اليمن .. وباغت العسكر العثمانى المسلمين مرة فى صنعاء والزبيد وهم فى صلاة العيد .. » .

قال : « أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة وتركوا الهند مساهمة وتركوا الممالك الجسيمة الأسيوية للروسيين وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون » .

ولم يشأ الكواكبى أن يفرق بين ضرورات الواقع وبين دواعى الاختيار فى هذه الأعمال ، لأنه نظر إلى النتيجة التى يقيم عليها حجته وهى فشل التصدى لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومآزق السياسة وصعوبة الوحدة الجامعة بين دول الإسلام .

ومما قاله عن الحرية فى أم القرى : « إن البلية فقدنا الحرية . وما أدرانا ما الحرية ؟ هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه » .

ثم قال : « إن الحرية أعز شىء على الإنسان بعد حياته .. بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين » .